

المدرسة النظامية

صورة من صور الحياة الثقافية في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط

الباحث/ عصام منصور صالح عبد المولى^(*)

لعبت المدرسة النظامية دورا بارزا في الحركة الثقافية بالقرن الخامس الهجري وما بعده، تخرج فيها العديد من العلماء الذين طار ذكرهم في الآفاق، وبفتحتها تم الاقتداء بها ففتحت العديد من المدارس في مختلف الأقاليم الإسلامية، كما أن فتحها وأنظمتها التي عملت بها ولوائحها ومراسمها، شابته بعض الجامعات العالمية في وقتنا الحالي، من حيث احتفالية الافتتاح وطرق التدريس والدرجات العلمية والمسكن الجامعية، لذلك نستطيع القول بأن المسلمين قد سبقوا العالم الآن في هذا المضمار، هي إنجاز حضاري من إنجازات نظام الملك، سميت باسمه، اهتم بها اهتماما بالغا رصد لها ولنجاحها مبالغ مالية طائلة، اختار لها مدرسين علماء من أعلام عصره، وأجرى عليهم الأرزاق بسخاء، وذلك أمامهم

(*) عضو هيئة تدريس بقسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة عمر المختار - ليبيا.

الصعاب لتؤدي رسالتها على أكمل وجه، حتى صار التعليم بها من أسباب الثقة بالمتعلمين والمعلمين على حد سواء، علاوة على أنه أجرى الأرزاق على الطلاب للتفرغ لتحقيق العلم، الذي جعل فيها حقا للجميع وليس حكرا على أحد، رجالا ونساء، فقراء وأغنياء، لا نجانب الصواب إذا اعتبرناها نموذجا للحياة الثقافية للعالم الإسلامي في المشرق خلال القرن الخامس الهجري.

على كل حال جاء في لسان العرب لابن منظور تعريفا للمدرسة في العصور الإسلامية الوسطى بأنها هي البيت الذي يدرس فيه القرآن، وأصل الدراسة الرياضة والتعهد للشيء، بمعنى القول: درست الكتاب: دللته بكثرة القراءة^(١)، والمدارس في التاريخ الإسلامي مباني تشبه القصور والمساجد، يأوى إليها طلاب العلم تقوم بتنقيفهم فئة من المدرسين والعلماء يجيدون القيام بمهمة التدريس، تتميز دراستها عن الدراسة الكتابية والمسجدية بالتعليم العالي، والوعظ الممزوج بالتعليم عن طريق المسألة والمجوبة^(٢)، وتعد المدرسة النظامية من أشهر هذه المدارس وسميت بهذا الاسم نسبة إلى نظام الملك وزير السلجقة^(٣)، الذي قام باستحداثها في بغداد سنة ٤٥٨هـ، وفتح

(١) ابن منظور، أبو الفضل جمال (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، بيروت، دار صادر،

١٩٥٥، ج ٦، ص ٧٩، ٨٠.

(٢) سعيد إسماعيل علي، معاهد التربية الإسلامية، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٨٦، ص ٣٠٤.

(٣) استوزره ألب أرسلان الذي توفي سنة ٤٦٥هـ، ومن بعده ابنه ملك شاه، توفي سنة

٤٨٧هـ. ناصر الحسيني، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، بيروت، دار اقرأ، ١٩٨٥، ص ٣١٦.

المدرسة النظامية
صورة من صور الحياة الثقافية في العالم الإسلامي
فكر وإبداع
خلال العصر الوسيط

لها عدة فروع في كل من بلخ ونيسابور والموصل^(١)، وكانت نظامية بغداد أهمها، وبمناوبة الأم لتلك الفروع.

وقبل بنائها كان التعليم يتم في المساجد، في حلقات لتدريس العلوم الدينية بين أوقات الصلاة، ومع ازدياد عدد المتعلمين ازدحمت بهم المساجد، فخلق ذلك نوعاً من التشويش بين المصلين والطلاب، لذلك دعت الحاجة إلى إنشاء مدارس مستقلة عن المساجد، فبدأ العمل في بناء ووضع حجر الأساس للمدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٨هـ^(٢)، على الضفة اليسرى لنهر دجلة^(٣)، وتم الانتهاء من بنائها سنة ٤٥٩هـ، امتازت بالفخامة والجمال وكثرة الرخام المستخدم في البناء، شارك في بنائها معماريون من العرب والفرس^(٤).

وعند افتتاحها أقيم لها حفل بالمناسبة وعهد بالتدريس فيها لشيخ يدعى أبو إسحاق الشيرازي^(٥)، واهتم بها نظام الملك اهتماماً بالغاً حتى أنه أنفق عليها

(١) السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، (ت ٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، مصر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ١٩٦٦م، ج ٤، ص ٣١٣.

(٢) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت ٥٩٧هـ)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٩هـ، ج ١، ص ٢٣٨، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن الكرم (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨م، ج ٨، ص ١٠٣.

(٣) عبد العزيز الدوري، "بغداد"، دائرة المعارف الإسلامية، القاهرة، دار الشعب، ١٩٩٠م، ج ٧، ص ٣٧٨.

(٤) محمد التتوخي، حول الأدب في العصر السلجوقي، بنغازي، مكتبة قورينا، ١٩٧٤م، ص ١٢١.

(٥) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ١٠٥، ١٠٦.

كل غال ونفيس، فاشترى ضياعا وخانات وحمامات، وبنى حولها الأسواق وجعل أرباح كل ذلك وقفا عليها، وجعل التعليم فيها مجانا، بل تعدى ذلك أن جعل لطلابها أرزاقا كمنح دراسية، بالإضافة إلى المأكل والملبس والمسكن^(١)، بل خصص لكل طالب غرفة سكن خاصة به وحده، لتهيئ له المناخ المناسب لتحقيق العلم، وجعل لكل طالب أربعة أرطال من الخبز يوميا^(٢)، أي ما يعادل ٨ كيلو جرام، وبهذا توفرت لها إمكانيات لم تتوفر لغيرها من المدارس، فوصلت ميزانيتها ٦٠٠ ألف دينار سنويا^(٣)، وهو مبلغ كبير جدا.

نظم التعليم بالمدرسة النظامية :

نظمت لها هيئة تدريس من أفضل العلماء في ذلك العصر، شملهم تقريب وعطف نظام الملك وأجرى عليهم الأرزاق بسخاء، وكان لكل واحد منهم حلقة خاصة، لها وقتها المحدد ومادتها العلمية المحددة، والطريقة المتبعة أشبه بالمحاضرات، حيث يقف المدرس والطلاب أمامه جالسون على مقاعد، يستمعون، وما أن ينتهي من محاضراته حتى يطره الطلاب بالأسئلة من كل صوب، فيجيبهم حتى يحين المساء، فينفض الجمع^(٤).

(١) جورجى زيدان، تاريخ التمدن الإسلامى، القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩٣١م، ج ٣، ص ٢٠٣، ٢٠٤.

(٢) ابن الجوزى، المصدر السابق، ج ٨، ص ٢٤٦.

(٣) جورجى زيدان، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٤) نقولا زيادة، لمحات من تاريخ العرب، بيروت، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبنانى،

وقد تنوعت المواد الدراسية فكانت دينية ولسانية وفقهية^(١)، وكان يدرس المذهب الشافعي مع علم الخلاف بينه وبين المذاهب الأخرى، وتدرس اللغة العربية والنحو والصرف، والتفسير بفروعه، بالإضافة إلى الوعظ^(٢).

لنتم الفائدة من العملية التعليمية تم مراعاة الاختصاص في تدريس العلوم، وأسندت المواد العلمية لأهل الاختصاص، فأسند تدريس اللغة العربية من نحو وصرف إلى أحد أئمة اللغة، وهو ابن الخطيب التبريزي المتوفى سنة ٥٠٢هـ^(٣)، وأسندت من بعده لأستاذ آخر يعرف بالفصحي، كان أعلم أهل زمانه بهذا العلم^(٤)، امتاز بحسن الخط وجودته (ت ٥١٦هـ)^(٥)، واختص بتدريس مادة الفقه فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، أسندت إليه رئاسة النظامية أول افتتاحها، فقام بتدريس الفقه حتى وفاته سنة ٤٧٦هـ^(٦)، عن عمر يناهز ٨٣ عاماً، وأقيم عزاءه بالمدرسة تكريماً له، وصلى عليه

(١) جورج زيدان، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٢) سعيد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص ٣٥٨.

(٣) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، بيروت، المكتبة العصرية، لا ت، ج ٢، ص ٣٣٨، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣، ج ٥، ص ٢٨٢٣، ٢٨٢٤.

(٤) نفسه، ص ١٩٦٤.

(٥) القفطي، جمال الدين أبو الحسن (ت ٦٤٦هـ)، أنباه الرواه على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٨٦م، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٦) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، لا ت، ج ١، ص ٢٩.

الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله^(١)، وببلوغه لهذا السن نفهم بأنه لم يحدد رسمياً سن معين يحال صاحبه إلى التقاعد.

ولإنجاح العملية التعليمية بهذه المدرسة، خصص لها نظام الملك ما هو أهم، ألا وهي المكتبة، التي كانت تعرف بخزانة الكتب، فقد حوت كل نادر ونفيس من المؤلفات والمخطوطات، جمع فيها مختلف الكتب العلمية والفقهية النفيسة، وجعل عليها خزان ومشرفون، يتعهدونها بالحفظ والعناية^(٢).

شروط القبول للالتحاق بالمدرسة النظامية :

لم يكن التعليم فيها حكراً على فئة معينة من الناس، بل كانت أبوابها مفتوحة لمختلف طبقات مجتمع العالم الإسلامي، فلا فرق بين غني وفقير، مشرقي أو مغربي، فجمعت بينهم رابطة الثقافة الإسلامية، إلا أنه اشترط في قبول الطالب أن يكون على المذهب الشافعي^(٣)، أحد المذاهب السنية الأربعة، وهو المذهب الرسمي للدولة وقتها.

لم تكن النساء بمعزل عن التعليم بالنظامية، ففي سنة ٤٨٦هـ قدم إلى بغداد أحد الوعاظ، يدعى أبو الحسين العبادي الواعظ، وجلس في النظامية للوعظ، فكان يحضر مجلسه ٣٠ ألفاً من الرجال والنساء، ومن بينهم الغزالي الذي تولى رئاسة النظامية سنة ٤٨٤هـ^(٤)، وهذا العدد يدل على

(١) ابن الأثير، المصدر السابق، ج ٨، ص ١٣٤.

(٢) جورج زيدان، المرجع السابق، ج ٣، ص ٢٠٤.

(٣) سعيد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٤) ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ)، النجوم الزاهرة في في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، المؤسسة العربية العامة للتأليف والنشر، لا ت،

مدى إقبال الناس على العلم أولاً، وعلى ضخامة مباني المدرسة النظامية ثانياً، واستقبال النظامية لهذا الواعظ وجلوسه بها يدل على نظام معروف في وقتنا الحالي، بنظام الأستاذ الزائر، الذي تدعوه إحدى الجامعات للتدريس فيها مدة زمنية معينة.

ونظراً للخدمات التي كانت تقدمها المدرسة النظامية، كالعطاء السخي للأساتذة، والخدمات للطلبة، كثر عليها الإقبال، لدرجة أن بعضهم تخلى عن مذهبه، واتبع المذهب الشافعي، مذهب الدولة الرسمي، وقد عبر أحد الشعراء عن هذه الظاهرة بقوله:

ومن مبلغ الوجيه عني رسالة	وإن كانت لا تجدي لديه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل	وذلك لما أعوزتك المأكـل
وما اخترت رأي الشافعي تدبنا	ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر	إلى مالك فافطن لما أنا قائل

يقصد بهذه الأبيات نحوي اسمه الوجيه ابن مبارك الواسطي، تحول عن مذهب الإمام ابن حنبل إلى مذهب أبي حنيفة، ثم إلى المذهب الشافعي، فاعتبر تصرفه هذا غير خالص لوجه الله إنما لطلب العز والجاه^(١).

ج ٥، ص ١٨٦، ابن الأثير، المصدر السابق، ص ١٦٨، ١٦٩، وسيأتي الحديث عنه فيما بعد.

(١) ابن الديبشي، أبو عبد الله محمد بن سعيد (ت ٦٣٧هـ)، ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد، بغداد، دار مكتبة السلام، ١٩٧٤م، ج ١، ص ١٣٧.

أهداف المدرسة النظامية :

رسم لها نظام الملك هدفا وسعى إلى تحقيقه، وهو تقوية المذهب السني الشافعي لمواجهة خطر الدعاية الفاطمية الشيعية^(١)، والحد من انتشار مذهبهم عندما اتخذوا من الأزهر بمصر مركزا لبث دعايتهم، ونشر فكرهم^(٢)، ورأى أن الدواء يجب، أن يكون من جنس الداء، بأن يتعرف مقاومتهم سياسيا بمقاومة فكرية مضادة، لأر الدين في ذلك الوقت كان وسيلة قوية لذلك ملك وإقامة آخر مكانه^(٣)، لذلك كانت الباطنية^(٤) بالأزهر تضع طلابها في حالة شك لكل فكر ديني سائد^(٥).

وتحقيق هدفه قرب إليه علماء عصره، وأنفق عليهم بسخاء، وفتح المدارس لهم، وعاول التوفيق بين علم الكلام وتفكير السنة، أي بين المذهب

(١) عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، جدة، دار المعرفة، ٨٣ م، ص ٢١٦.

(٢) أحمد مختار عبادي، في التاريخ العباسي والفاطمي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، لا، ص ١٨١.

(٣) سليمان دنيا، حقيقة في نظر الغزالي، القاهرة، دار المعارف، لا، ص ١٥.

(٤) الباطنية: تراث الإسماعيلية، فرقة من الشيعة، زعموا بأن للنص القرآني تفسيران، الأول ظاهر، والثاني باطني، لا يفهمه إلا الأئمة المعصومون لذلك عرفوا بالباطنية، وأردوا بذلك توجيه من يتبعهم كيفما أرادوا، انظر هودكون، "الباطنية"، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٦، ص ٨٧، مصطفى الرافعي، حضارة العرب في العصور الإسلامية الزاهرة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٧٨ م، ص ١٧.

(٥) أركون دارو، تاريخ الجماعات السرية، ترجمة عبد الهادي عبد الرحمن، تانييت للنشر، لا، ص ٨.

المدرسة النظامية
صورة من صور الحياة الثقافية في العالم الإسلامي
فكر وإبداع
خلال العصر الوسيط

الشافعي والأشعري^(١)، ذلك لأن الأشاعرة هم الأقدر على القيام بهذه المهمة، فلم يَفْقَوا عند ظاهر النص، بل أعملوا العقل في تفسير النصوص، لإثبات وحدانية الله، وفقهاء المذاهب السنية وخاصة المالكية قالوا بأن الرأي والجدل في العلم يذهب بنور الله في القلب، ووقفوا عند حافة النصوص، فحصل عند بعضهم نوع من الجود، بل كثيرا ما تمسكوا بالفروع وتركوا الأصول^(٢)، فوقعوا في التشبيه^(٣).

لذلك كان الأشاعرة الأقدر على مواجهة الشيعة الباطنية، ومقارعة الحجة بالحجة، ومواجهة كل محاولات التخريب العقائدي من قبل أعداء الإسلام، ففسروا النص القرآني في ضوء العقل، بإنهاض الدليل العقلي إلى جانب الدليل النقل، بغية تعزيز صلة الإنسان بالله عز وجل.

ولتحقيق أهداف النظامية فتح لها عدة فروع، وزعت توزيعا جغرافيا في المناطق التي تتجمع فيها الشيعة بأعداد كبيرة، مثل البصرة والجزيرة الفراتية ونيسابور^(٤)، وهي مناطق انتشرت فيها الدعوة الفاطمية قبل وصول السلاجقة إلى سدة الحكم في بغداد، أيام بني بويه الشيعة، وبفتح النظامية

(١) بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م، ص ٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) محمد علي أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٢م، ص ٣٣٥.

(٣) التشبيه: وهو تشبيه الله سبحانه وتعالى بصور مادية، وذلك لعدم إعمالهم للعقل، انظر: شتروتمان، "التشبيه"، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٨، ص ٣١٦.

(٤) عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المرجع السابق، ص ٢١٦.

وفروعها بدأ العمل على اقتلاع فكرهم ودعوتهم من جذورها، بتحويل هذه المناطق لمذهب السنة.

بذلك نرى أن نظام الملك اتخذ من المدارس وسيلة دفاع، مزج فيها الدين بالسياسة والتقرب إلى الناس^(١)، سبيله في ذلك السيطرة على نفوس العامة تحت اسم الدين، لأنها إذا دعت إليه كانت أشد استجابة من أي دعاء آخر^(٢)، ولأن المذاهب الدينية كانت تمثل في جوهرها مذاهب سياسية، ولعل هذا هو السبب الحقيقي لإنشاء المدارس النظامية، وأيا ما كان الحال فقد لعبت هذه المدرسة دورا بارزا في الحركة الثقافية والفكرية في القرن الخامس الهجري وما بعده.

دورها في الحركة الفكرية والعلمية :

نظرا لما توفر لها من إمكانيات مادية لم تتوفر لغيرها من المدارس، واهتمام الدولة منقطع النظر بسير وانتظام الدراسة بها، وتذليل الصعاب أمام الطلاب والمدرسين، تخرج فيها أعداد هائلة من الخريجين، انتشروا في مختلف أقاليم العالم الإسلامي، وحملوا الفكر السني إلى مناطق نائية بعيدة عن بغداد، كالمغرب الأقصى، والأندلس، وسمرقند^(٣)، وهؤلاء بدورهم بنوا مدارس خاصة بهم، لتدريس المذهب الشافعي، وحاربوا الاتجاه السلفي الذي أدى أغلب الأحيان للوقوع في التشبيه، والتصدي لعمليات التخريب العقائدي.

(١) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

(٢) سليمان دنيا، المرجع السابق، ص ١٥.

(٣) عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المرجع السابق، ص ٢٢٨، ٢٢٩، سمرقند: بلد يقع فيما

وراء النهر. انظر: الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار إحياء التراث العربي،

١٩٧٩م، ج ٣، ص ٢٤٦.

المدرسة النظامية
صورة من صور الحياة الثقافية في العالم الإسلامي
فكر وإبداع
خلال العصر الوسيط

هذا ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل استطاع أحد تلاميذ هذه المدرسة ويدعى عبد الله بن تومرت، أن يؤسس دولة على المذهب الشافعي بالمغرب والأندلس^(١)، ونهى عن الجمود الذي وقع فيه المرابطون الذين كانوا على المذهب المالكي^(٢).

زد على ذلك أنها أحدثت ثورة تعليمية في العالم الإسلامي حيث اقتدى بفتحها الأمراء المسلمون بفتح العديد من المدارس، حتى وصلت ٣٠ مدرسة في بغداد وحدها سنة ٥٨٠هـ، وهذا ما وصفه لنا ابن جبير خلال رحلته إلى بغداد بقوله:

"والمدارس بها نحو ٣٠ مدرسة، وما منها مدرسة إلا وهي كالقصر البديع، أشهرها النظامية... ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبسة"^(٣).

بالإضافة إلى أنها أصدرت العديد من المؤلفات في الفكر الإسلامي ورسائل علمية ففندت آراء الحركات المعادية للإسلام، وتنقية العقيدة من الشوائب التي علقت بها، ولنا هنا وقفة مع أحد أصحاب تلك المؤلفات، ألا وهي أحد مدرسي النظامية أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ، تولى

(١) هي دولة الموحدين شملت المغربين الأوسط والأقصى والأندلس، انظر: الفلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، بيروت، دار الفكر، ١٩٨٧م، ص ١٩١.

(٢) نفسه، ص ١٩١.

(٣) ابن جبير، أبو الحسن محمد (ت ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير، بيروت، دار صادر، ١٩٦٤م، ص ٢٠٥.

التدريس بها، وانتهت إليه رئاستها سنة ٤٨٤هـ^(١)، يعد الغزالي أشهر مفكر مسلم، بل أعظم مفكر أنجبته الحضارة الإسلامية بإجماع المؤرخين، كان شديد الذكاء، من أسرة فقيرة، توفي أبوه وتركه في رعاية صديق له، فلم يستطع إعالته طويلا، فالتحق بنظامية نيسابور، يطلب العلم ليحصل على قوت يومه^(٢)، فنبغ وتفوق على زملائه، فقربه إليه نظام وأكرمه وبالغ في إكرامه، وأسند إليه رئاسة النظامية سنة ٤٨٤هـ، وعظمت مكانته حتى بلغت منزلة الملوك^(٣)، وأقبلت عليه الدنيا وأجريت عليه الأرزاق بسخاء، ووجدوا فيه صوتا قويا لدعم المذهب الشافعي، المذهب الرسمي للدولة، فألف العديد من الكتب للدفاع عنه، فأقبلت عليه الدنيا وأقبل عليها، لكنه ترك هذا الجاه والعز فجأة، وكانت أمامه فرق كثيرة متناحرة متباينة الآراء والأهواء، وأدرك أن تدريسه بالنظامية ونشره للعلم ليس لوجه الله، وإنما لطلب العز والجاه، وفي ذلك يقول عن نفسه: "ثم تفكرت في نيّتي للتدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه"^(٤)، وأخذ يبحث عن الحق بين هذه الفرق، وأصبحت شغله الشاغل، وفحص آراء كل فرقة معتمدا على عقله، كالمعتزلة والباطنية والزنائدة والفلاسفة^(٥)، ففند تعاليم الفلاسفة وقال إنها مناقضة للعقل، وآرائهم مخالفة للدين، وليس لها أي أساس من

(١) ابن خلكان، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢١٦، ٢١٧.

(٢) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، كتاب إحياء علوم الدين، تحقيق

محمد عبد الملك الزغبى، القاهرة، مكتبة التقوى، لا ت، ج ١، ص ٧.

(٣) نفسه، ج ١، ص ٧.

(٤) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ)، تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان

دنيا، القاهرة، دار المعارف، لا ت، ص ٤٩.

(٥) نفسه، ص ٥٠.

الصحة^(١)، ودون ذلك في كتابه سماه "تهافت الفلاسفة"، فرد عليه ابن رشد بكتاب سماه "تهافت التهافت"، قال فيه إن الغزالي أراد الطعن في الفلاسفة لتزداد فيه ثقة أهل السنة فقط^(٢).

ولما فند الغزالي آراء كل طائفة وسخر من تفكير الفلاسفة، وأدرك أنه هالك لا محالة، ترك التدريس بالنظامية والجاه العريض وخرج هائما على وجهه، منتقلا بين البلدان، ملتصقا للحق، حتى جذبته الصوفية إلى ساحتها، واعتقد بأنها السبيل الصحيح لمعرفة الخالق، وأنها أسهل الطرق وأفضلها لتعزيز صلة الإنسان بخالقه^(٣)، ومن بعدها أخذ على عاتقه نشر العلم بين الناس، وقول كلمة الحق دون لومة لائم، فأصبحت كلمته تهتز لها العروش، وتحول إلى الإصلاح الاجتماعي، فحارب الفساد، حتى أنه كتب رسالة بالفارسية إلى سنجر ابن ملك شاه، حاكم خراسان جاء فيها: "أسفا أن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية"^(٤)، ثم دعا الدولة لحماية إيمان العامة، رافضا إثارة الشبهة في نفوسهم باستخدام البراهين العقلية^(٥)، لقلة ثقافة العامة من الناس، وانقيادهم مع كل فكر وتيار، فاستحق لقب حجة الإسلام، ولذلك كتب إلى أحد العلماء، عندما تقرب بعلمه إلى الأمراء، يحذره من تصرفه وتزلفه للملوك،

(١) محمد لطفي جمعة، تاريخ فلاسفة الإسلام، لا ط، لا م، لا د، لا ت، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٧١.

(٣) محمد علي أبو ريان، المرجع السابق، ص ٣٧٥.

(٤) الغزالي، كتاب إحياء علوم الدين، ج ١، ص ٨.

(٥) محمد علي أبو ريان، المرجع السابق، ص ٣٧٤.

وما يترتب عليه من سلبيات، فقال له: "اتخذوك قطبا تدور عليه رحى ظلمهم وجسرا يعبرون عليه إلى بلادهم ومعاصيهم يدخلون بك الشك إلى العلماء ويقتادون بك قلوب الجهلاء"^(١).

سلبيات المدرسة النظامية :

بما أن الكمال لله وحده، وخلق الإنسان ناقصا، فكل فعل وعمل له ناقص، ولكل شيء من صنع الإنسان سلبيات وإيجابيات، لذلك كان لهذه المدرسة سلبيات وإيجابيات، إلا أن سلبياتها أقل من إيجابياتها، وأول هذه السلبيات إهمالها تدريس العلوم التطبيقية، كالطب والفلك والرياضيات... إلخ، ومع إصرارها في تدريس المذهب الشافعي، همشت المذاهب السنية الأخرى^(٢)، وبتأسيس النظامية، والاهتمام بها من قبل الدولة رسميا أصبحت على مستوى عال - ضاهت جامعات وكليات وقتنا الحاضر - لم يكن معها مدارس كالابتدائية والثانوية تغذيها بالطلاب، لوضع الأسس الأولى لها^(٣).

عمر المدرسة وزمن اندثارها :

بدأ العمل في بنائها سنة ٤٥٧هـ، وفتحت أبوابها سنة ٤٥٩هـ، أي منتصف القرن الخامس الهجري واستمرت حتى نهاية القرن الثامن الهجري، فبعد قرن من افتتاحها زار الرحالة الأندلسي ابن جبیر بغداد سنة ٥٨٠هـ، ووصف مدارسها التي بلغت ٣٠ مدرسة، بأن أعظمها النظامية^(٤)، ومن بعده

(١) ابن أبي الحديد، عبد الحميد بن هبة الله (ت ٦٥٦هـ)، شرح نهج البلاغة، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٦٤م، ج ٥، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) عبد المجيد أبو الفتوح بدوي، المرجع السابق، ص ٢٤٣، ٢٤٤.

(٣) سعيد إسماعيل علي، المرجع السابق، ص ٣١٩.

(٤) ابن جبیر، المصدر السابق، ص ٢٠٥.

بقرن ونصف، أي سنة ٧٢٧هـ، زار بغداد الرحالة ابن بطوطة، وذكر النظامية وفخامتها وجمالها^(١)، وآخر من أشار إلى وجودها في القرن الثامن الهجري، أي سنة ٧٩٧هـ ابن العماد الحنبلي، صاحب كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب^(٢)، غير أنه في الوقت الحاضر اختفت معالمها من بغداد^(٣).

(١) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد (ت ٧٧٩هـ)، رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادر، ١٩٦٤، ص ٢٢٥.

(٢) العماد الحنبلي، عبد الحي أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، لا ت، ج ٦، ص ٣٥١.

(٣) خودا بخش، الحضارة الإسلامية، ترجمة علي حسني الخربوطلي، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٠م، ص ١٧٥.